



حياته . . . وتنقلاته

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقي سرور

- ٤ -

الحلاج يستعرض
المنهج والرسالة

خياله ، وبصيرة أحلامه ، أنها ستغير
وجه الحياة . حياته . وحياة الناس
كافة !!

لقد آن للعالم الإسلامي أن يبعث
من جديد ، على نور من كتاب الله
وحبه ، وشمع من حياة الرسول
وهديه .

وما أروع وأجل أن تتحقق أحلام
الحلاج ، فتشهد الدنيا أمة قرآنية
تقوم بعين الله ورعايته ، يحكمها
ويوجهها أقطاب عباد أتقياء أصفياء ،
يحبون الله ويحبهم ، ويملئون الكون

آمن الحلاج وهو يشق طريقه إلى
الله ، على اجنحة من رياضاته العنيفة
الشاقة ، وأشواقه القلبية المتقدة ، أن
هناك صلات لا تنفصم بين الكمال
الروحي الذي ينشده ، والاصلاح
الإيماني الذي يستهدفه .

إنه ليحس بأن في أعماقه قوى
ضخمة تفور وتتصارع وتتهيا للحركة
والنوب .

ويشعر بأن هناك في أبعدها من
نفسه وقلبه ووجدانه ، تتفجر بناييع ،
وتندفق نيارات وثورات ، يرى بعين

- ٧ -

بمواجيدهم وضراعاتهم وأنوار
إلهاماتهم .

ويحملون الناس على الجادة والطريق
الذي اصطفاه الله وارتضاه ، فلا
تفترق السياسة عن الصلاة ، ولا الحكم
عن الحب ، ولا العمل عن العبادة . .
فتتحول الدنيا من غابة للشبهوات
والصراع وهو الشياطين ، إلى مساجد
للحب والسلام ونجوى الساجدين
العابدين .

لأنها أحلام الحلاج ، التي تملأ عليه
آفاقه ، والتي تعيش في أعماقه ، وتبعث
الحركة والاضطراب في حياته ، ترى
هل هو أهلا لها ؟ وهل يستطيع
النهوض بها ، فتتحول الأحلام
والآمانى ، إلى حقائق حية ، تسمى
وتعيش وتخلد ؟

وهل يستطيع الصوفية ، وهل
يستطيع المنهج الصوفى ، أن يقدم له
القاعدة الصلبة التي يرتكز عليها ،
ويثبت من فوقها ؟

لقد جاهد الصوفية أنفسهم في
سبيل التصفية والتحلية والتطهر ، جهادا
خالدا لم تعرف صحف الجهاد النفسى
مثيلا له من قبل .

وفرضوا على أنفسهم مناهج في
السلوك ، وآدابا في الطريق ، وواجبات

في العبادات ، وأخلاقا في الحياة ، هي
أسمى تصورات الكمال التي عرفها
هذا الوجود .

وامتألت أيديهم بثروة ضخمة من
التجربة العملية السكاملة التي قاموا بها
وحدهم ، وهم يصعدون معارج الوصول
إلى أفق الحب الإلهى ، وسموات
الإلهام والنجوى .

وتركوا للإنسانية زادا صالحا من
معارفهم وإلهاماتهم ، وعطرا زكيا
من أورادهم وعباداتهم ، وسيرا وصحفا
لهم تشع هدى ، وترسل نورا ،
ونهدى طريقا

ثم عاش الصوفية بعد ذلك حياتهم
داخل أنفسهم ، أو داخل حلقات
دروسهم ، وساحات مريدتهم ، ولم
يمدوا أعينهم إلى ساحة الحياة
الكبرى ، وإلى ميادين جهادها
الأخرى .

ولقد آمن الحلاج ، بأن المنهج
الصوفى بكالاته في الأخلاق والعبادات
والجهاد الروحى ، وبمواجيده وأذواقه
ومعارفه في الحب الإلهى ، إنما يمثل
وجها واحدا من الدعوة الإسلامية ،
ووجها واحدا من حياة الرسول
صلوات الله وسلامه عليه ؛ أنه يمثل

مرحلة الأعداد غيب ، ثم تأتي في أعقابها مرحلة السكمال . مرحلة الجهاد العام لتبليغ الدعوة ، وحمل الناس عليها ، والدفاع عنها ، فلو أكتفى الأنبياء والأولياء ، والمصلحون والزعماء . بأنفسهم ولم يحملوا ما تلقوا وما تعلموا وما آمنوا به إلى الناس ، ولم يجاهدوا في سبيله حتى نعلو كلمات الله ، وتسود تعاليمه ورسالاته ، ففسدت الأرض ، وامتطأها شياطين الجن والإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .

ولقد فسد عصر الحلاج فسادا كبيرا ، وتنايد الناس واختلفوا وتفرقت بهم السبل ، وأغرقوا في الشهوات والملذات والترف الملوك .

وكانت قمة الفساد قصور الخلفاء والأمراء ؛ فقد غدت مسرحا لعبث الجوازي والإمام ، ومرعا للمرتشين والمغامرين والملحدين ؟

ومع هذا فما هي بغداد عاصمة الخلافة تموج بالنجوم الكبار من أعلام التصوف وأئمة . الجنيد ، والتستري ؛ والمكي ، والشبلي ، والنوري .

وما هو العراق في كل سهل وجبل

وقرية فيه ، صوفية عباد أتقياء أصفياء لهم مكاتهم وأقدارهم .

إن سهل بن عبد الله التستري ليقول : إنه دخل البصرة ، فوجد بها أربعة آلاف من العارفين ؟

البصرة وحدها يعيش بها هذا العدد الضخم من العارفين ؛ الواصلين . فكم منهم في بغداد ؟ وفي كل مدينة من مدن العراق ؟

ومع هذا فبغداد والعراق قد أصبحا علماء عالميا على التدهور الخلق ؛ والانحلال الديني ؛ والفساد الاجتماعي .

ماذا فعل الصوفية حيال كل هذا . ولهم المسكاة ولهم الجاه . ولهم الحب والتقدير عند الخاصة ، والسلطان الشامخ على العامة .

لقد فكر الحلاج في كل هذا وأطال التفكير ، فلم يرض عنه ، ولم يطمئن إليه ، وعبر عن سخطه بكلمات من لهيب وبرق .

إن الله سبحانه كما يقول الحلاج : لن يقبل من الناس عبادتهم ، إذا اختلت سياستهم ، وفسدت أخلاقهم ، ثم استكانوا للبغي والفساد .

وإن الله سبحانه كما يقول الحلاج : لن يقبل من أصحاب الأردية

والأكسية ، دندناهم وكلداتهم مالم
ينهبوا للحق ، ويجهروا به ، ويقدموا
ديارهم في ساحة الاستشهاد والفداء .
وقد آن لرجل من رجال الله أن
يرفع صوته ، ويؤذن بالدعوة ، وإن
الحلاج ليهب نفسه وبرصدها للغاية
الكبرى .

وإن كان يمسك نفسه حيناً ، ويقلب
وجوه الرأى أحياناً فليس عن تردد
أو ضعف ، إنه يريد أن يستوثق من
نفسه ، وأن يطمئن إلى عدته ، هل
كملت رياضاته ، وهل نصحت
مجاهداته ، وهل خلص له قلبه ؟ إن
قلبه لينازع عقله فيما يريد ، وإن وجدانه
ليحاول تفكيره فيما يجب .

لقد تعشق بقلبه ووجدانه وروحه
المنهج الصوفي ، ورصد كل قواه منذ
صباه لحب الله وعبادته والجهاد في
مرضاته ؛ حتى يصل إلى فناء كامل ،
تفنى فيه إرادته في إرادة الله ، ونوازع
بشريته ، في كالات عبادته ، وأهواء
نفسه في لذة إنسه ، وجلال قربه .
وإن هذا الجلال ، وهذا الحب ،
وهذا الفناء ، ليسكناد يسرقه عن
نفسه ، وعن رسالته حيناً ، وحيناً
يخيل إليه أنهما ارنبطا واتحددا ،
واصبحا شيئاً واحداً .

لإنها عاصفة من التفكير المزلزل
المتعدد الألوان والصور ، خلص له منها

أمراً يقينياً اطمئن إليه اطمئناناً لم
يجده عند سواه .

لأنه في حاجة إلى خلوة كاملة ،
يعيشها متحنثاً متطهراً ذا كرا قائماً ،
خلوة تؤهله أو تدنيه من الكمال .
وتزوده وتعدده للجهاد العنيف الشاق
الذي اعزم القيام به في وجه جميع
القوى .

ومن ثم اعزم الحلاج أن يرحل
إلى بيت الله المقدس ليخلو بنفسه في
أرض الوحي والإلهام ، ليزداد قرباً
من ربه ، وكما لا في نفسه ، وهما عدنه
ومعراجيه إلى هدفه .

الحلاج في بيت الله :

وفارق الحلاج بغداد نجاةً إلى مكة
المكرمة ، وبعد أن طوف بالبيت
العتيق ، وامتلأت عيناه بالمشاهد التي
شهدت خطو الملائكة وجماد خاتم
النبيين ، نذر البقاء عاملاً للعمرة في حزم
البيت المبارك للنظير والذبيك ، والتصفية
القلبية ، والاعداد الروحي .

عاش الحلاج في مكة عاملاً كاملاً في
صمت مطلق ، وتأمل متصل ، وعبادة
ونجوى ، عاش في — الحجر —
لايستظل تحت سقف شقاء ولا صيفاً .
عن أبي يعقوب النهر جوري
قال : (١) دخل الحلاج مكة أول

(١) ص ٢٦ - ٢٧ . أخبار الحلاج
أعلى بن أنجب الساعى .

فترجم عن أمره بتلك الجملة القصيرة
المعبرة المصورة ، قال الحلاج : ولو ألقى
نما في قلبي ذرة على الجبال لذابت ، إنه
ثائر أو عابد من لون جديد ، تلاقت
في أثوابه خرقة الصوفية بكسوة الجنديّة
وامتزجت في قلبه أشواق الحب الإلهي
بشوة الإصلاح السياسي ، واجتمعت
في روحه طهارة العابدين ورقمهم ،
ببطولات المصلحين وصلاتهم ،
وكانت هذه الأمشاج من الصفات
المتناقضة ، تعلوها صفة ثابتة تغطي
الحلاج طابعه الدائم .

ذلك هو الوجد الصوفي الذي كان
يأخذه أخذاً عنيفاً ملحاً ، يفنى فيه
عن نفسه حيناً ، وعن رسالته أحياناً
ويدفع به زمناً إلى الخسوف القاسية
والهرب من الناس ، أو يزج به قسراً
في تيار الحياة ومعاركها .

ذلك الوجد الصوفي الذي سيبانج
فته في سنواته الأخيرة ، بل ذلك الوجد
الذي سيرك بصنائه على تاريخ الحلاج
فيملأه غموضاً واضطراباً ، ويضفي
عليه فتنة وخيالاً ساحراً .

تنقلات الحلاج في العالم الإسلامي :
غادر الحلاج مكة إلى الأهواز ؛
ومعركته الباطنية لا تزال مشتعلة ،
رغم السلام الظاهري الذي اكتسبه
من رياضاته وخلوته . لقد رسم في
عزله خطوطاً ونزود بقوى واعتزم
أن يدفع بنفسه إلى ساحة الكفاح .

دخله وجلس في صحن المسجد سنة لم
يبرح من موضعه إلا للطهارة والطواف
ولم يحرز من الشمس ولا من المطر
وكان يحمل إليه في كل عشية ، كوز
ماء ؛ وقرص من أقراص مكة .
وكان عند الصباح يرى القرص على
رأس اللوز ، وقد عض منه ثلاث
عضات أو أربعاً فيحمل من عنده ،
عاش الحلاج حياته العجيبة القاسية
الشاقة عاماً كاملاً ، ما هي خواطره ؟
وما هي تأملاته ؟ وما هي القوة التي
تزود بها في خلوة ؟

لقد لزمته كتب التاريخ الصمت
حيال هذه الفترة من حياته ، إلا أن
المستشرق « ماسنيون » يحاول كعادته
أن يلقى الظلال والشبهات ، وأن
يفسر حياة الحلاج التفسير الذي
يصل به إلى الفسكرة التي استقرت
عنده . ، وهي أن الحلاج كان يحاول
أن ينجح نهجاً مسيحياً في تنسكه ودعوته
وأنه كان يتشبه بمريم البتول حيناً ،
وبالسيد المسيح أحياناً .

يقول ماسنيون : « إن الحلاج في
مكة كان يتشبه بمريم ابنت عمران .
ولأنه كان يهيئ نفسه استعداداً لميلاد
كلمة الله فيه ؛

إن تأملات الحلاج وأحلامه ،
وخواطره ورياضته بمكة ، تصورهما
لنا أولى كلماته التي نطق بها بعد عام
كامل من صمته ، لقد خرج الحلاج من
عزله فتلقاء أتباعه يسألونه عن شأنه ؟

خرج داعيا إلى الله ، مبشرا
برسالته ، وأتجه بدعوته إلى طبقة
المثقفين من الكتاب ورجال الأعمال
وإلى الجنود والقواد ، وجهاهير
الصوفية .

وقسم الحلاج منهجه إلى خطوط
رئيسية : ناحية دينية صوفية
جوهرها عبادة الله وحيه ، حبا
أساسه الوجد والشوق ، حتى يجمد
الإنسان ربه في أعماق نفسه ،
وبذلك يصل إلى السكال الروحي
والخلق .

وإصلاح الاداة الحسومية
الغارقة في الترف والشهوات
والانحراف ، حتى يستقيم الميزان
الموجه لحياة الناس .

ووحدة الأمة الإسلامية التي
مزقتها الفلسفات والعصبيات حتى
تستطيع أن تنهض برسالتها ، وتتجمع
لديها القوة اللازمة لحمايتها ،

وكان الحلاج في دعوته يتجنب
التسميات المميزة بين الفرق الدينية
حتى لا يظن به الجنوح إلى فرقة
بذاتها . وهي العقبة الكبرى في وجه
كل دعاة الإصلاح .

وكانت صيحة الحلاج المدوية
أن يعود الناس إلى الأساس الأول ،
إلى الإسلام كما جاء ، محجة بيضاء
وكا طبق في عهد الرسول توحيدا
صافيا ، وعملا لله خالصا ، وأن
يتخلى الناس عن هذه المذاهب التي
حجبته عن الجوهر ، فالمذاهب كما
يقول . إن هي إلا وسائط يجب
اجتيازها إلى روح الإسلام :

يقول العلامة ابن كثير في البداية
والنهاية : « وكان الحلاج في عبارته
حلو المنطق ، فيه تعبد وتأله
وسلوك ،

وغضب المتزمتون من رجال
التصوف لاندفاع الحلاج في التيار
السيامي ، وقابل الحلاج غضبتهم
بأعنف منها ، فنبذ خرقة التصوف
كما يتكلم بحرية مع أبناء الدنيا كما
يقول .

وعظم أمر الحلاج في الأهواز
وقتلت به الجماهير . ونسبت إليه
العجائب ، وتلونت هذه العجائب
بخيال العامة حتى غدت ضربا خارقا
لقدره الإنسان ؟ !

وكان الحلاج كما يقول

«الاسطخرى» ، باهر الشخصية ،
ساحر الكلمة . رافع السمات ، محبها
إلى القلوب : أو كما يقول العلم
الحديث : فيه استهواء روحي
للجماهير ،

ثم وسع الحلاج نطاق دعوته
فارتحل إلى خراسان وفي صحبته
العشرات من الحواريين . واستمر
كما يقول - ماسنيون - (١) -
يدعو ويهبط الجاليات العربية في
شرق إيران ، ويبث دعوته في المدن
ويقوم على الحدود ، ويرابط مع
المرابطين في الثغور وقضى في ذلك
خمس سنوات .

ثم يعود إلى الأهواز ، بعد أن
ترك دوا يتردد صداه في آفاق
خراسان ثم يدعو تلميذه العظيم
الواسع النفوذ - حمد القنائي - إلى
الإقامة ببغداد ، فيرحل إليها مع
أهله وطائفة كبيرة من المريدين
وأتباعه .

ويدخل الحلاج بغداد ، بعد أن
سبقت شهرته وعجائبه فيحدث في

(١) شخصيات قلقة في الإسلام

(٢) البداية النهاية لابن كثير

بغداد هزة ، يتردد صداها في
البيئات الصوفية والعلمية ، ترددها
في قصور بغداد العالية ، وأكواخها
السادجة ،

ثم يذهب الحلاج إلى مكة للمرة
الثانية مع أربعائة من تلاميذه .
ويعاود الاختلاء والرياضة حتى
يتهمه بعض خصومه بأنه يقوم
بأعمال السحر وتحضير الجن ،
لاعتصامه بقمة جبل «أبي قبيس» ،
وانقطاعه عن الناس .

ومن مكة يخرج الحلاج رحلته
الكبرى في سبيل الدعوة ، يخرج
إلى التركستان والهند حيث يعتنق
الإسلام على يديه خلق عظيم .

واتخذ البحر طريقا ، وصعد
في نهر السند من «ملتان» إلى
كشمير ويمضي في طريقه صاعدا
ناحية الشمال الشرقي حتى «طرقان» ،
مع القوافل الأهوازية . لقد كان
الحلاج كما يقول «ماسنيون» يفكر
في هداية الإنسانية كلها عبر الأمة
الإسلامية .

وعظم أمر الحلاج في بلاد
ماوراء النهر والهند والصين فكانوا
يكاتبونه (٢) من الهند بلقب

المغيث، ومن بلاد الترك بالمقيت،
ومن خراسان وباب عبد الله الزاهد،
ومن خورستان ، بالشيخ حلاج
الأمرار، وسماء أشياعة ببغداد
، بالمصطم ، وسموه في البصرة
، المحير ، وذهبت الدنيا تردد احاديثه
وقواه السحرية الخارقة ، أو كراماته
الباهرة .

يقول صاحب شذرات الذهب (١)
، وبلغ من شأنه أن كان يخرج
الاطعمة في غير وقتها ، والدراهم
من الهواء ، ويسمىها : دراهم
القدرة ، وكان يعرف الكيمياء
والطب .

ونشر الحلاج رسائله الكبرى
عن السياسة وواجبات الوزراء
مطالباً بإقامة حكومة إسلامية حقاً .
وزارة تحكم بالعدل بين الناس ،
وخلافة كما يقول : شاعرة
بمسئوليات وظيفتها أمام الله ،

فما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين
بقروض دينهم (٢) ،

ومن وراء النهر عاد الحلاج إلى
مكة ، يدفعه وجد صوفي ، وحنين
غلاب إلى الخلوة ، وإلى رياضاته
العنيفة القاسية ، في أرض النبوة
والإلهام ، وليتزود في عزلة
الروحانية ، بقوة إيمانية ، قوة
تؤهله لمواجهة الحياة في معركة
بطولية حاسمة .

هناك في بغداد عاصمة الخلافة
العباسية ، حيث الصراع الفكري
والديني يشتعل الأوار في البيئات
العلمية ، وحيث الترف والشهوات
والفساد يخنق المجتمع الإسلامي .

هناك معركة الحلاج الكبرى
التي سيقدم روحه قرباناً لها ، . .
وإلى بغداد يعود الحلاج ، ليشعل
فيها كل شيء ، وليحترق في
أتونها ؟

البحث مستمر

(١) ج ٢ ص ٢٥٤

(٢) شخصيات قلقة في الإسلام

طه عبد الباقي سرور